حول مشروع الثقافة الاسرائيلية المستحيل :

لاتجانس .. وحياة بحد السيف !

في عدد صحيفة السفير اللبنانية الصادر يوم ١٧/١٢/١٩٨٢ أعيد نشر حوار اسرائيلي عن نشرة « رصد اذاعة اسرائيل » بعنوان (الثقافة المشتركة مشروع مستحيل)، الحوار ـ الوثيقة يعيد تسليط الضوء وبوضوح لا يقربه الشك الى جملة حقائق عن واقع المجتمع الصهيوني ، التي عبر عنها وطالعها عدد من المفكرين ، الاختصاصين الغربيين والعرب وفي هذا الحوار الذي دار بين ثلاثة عناصر لهم حضورهم الأوسع في بنية المجتمع الاسرائيلي سواءٌ بصيغة التقاطع الذي يجمعهم باعتبارهم فاعلين في عملية (التأسيس) للمشروع الصهيوني الحالي ، أو في التنافر ـ الذي يكشف عنه الحوار ـ اليومي والمستمر من حيث محاولتهم (الصعبة) على (تنمية تراثهم المختلف) للوصول الى إحساس موحد !

والمتحاورون هم : (يوسف ليبد) مقدم البرنامج ، و (يوحنان بيرس) استاذ كلية علم النفس والعلوم الانسانية في جامعة تل ابيب وكلاهما من (الاشكناز) اي من يهود أوروبا ، والثالث الدكتور غبرئيل بن سمحون المحاضر في الآداب والسينما في الجامعة نفسها ، وهو من (السفارديم) ومغربي الأصل .

وهنا لابأس من التنويه في مدخل هذا الحديث الى ان هذه المادة لاتحاول مناقشة هذه الوثيقة بادق تفصيلاتها لسببين اثنين : الأول هو وضوح الاشكال الخطر الذي تنم عنه كل جملة وكل استخدام يتقدم به أحد المتحاورين لجهة الهوة و (العدم) الملموس في كل ما يحاولون التعبير عنه . والثاني هو النتيجة الأدق فيما توصلوا اليه في نهاية الحوار والتي لخصها الثالث بن سمحون بقوله : (الجميع يعلم اننا ننتقل من حرب الى حرب واتضح على الأقل خلال ٣٥ سنة الأخيرة اننا نعيش بحد السيف . ومن ناحية ضحايا الحرب اقول بأسف ان هناك مساواة عامة بين الثقافات والطوائف).

والاستدراك السابق لا يمنع بالضرورة امكانية التأشير ومحاولة التوقف عند بعض الأمور الابرز في ثنايا هذه الوثيقة المهمة ، والتي جهد المتحاورون من خلالها على أن يكوّنوا صورة موحدة وحقيقية للعقلية الصهيونية الراهنة . هذه العقلية التي هي نتاج للمعطى الحالي ، اي صورة وواقع المجتمع الاستيطاني منذ بدء التأسيس والاستيطان وما حمل معه من اشكالات قابلة لتحطيمه !

وهذا (التحطيم) كان قابلاً للتحقق لولا الارتباط الجوهري والشكلي بالأمبريالية كنسق اقتصادي ، سياسي وعسكري منذ (ان اقترح وايزمان وغيره من الصهاينة حل المشكلة « من اعلى » من ناحية المصالح الامبريالية وليس « من اسفل » من ناحية الجماهير اليهودية وحدد الاستراتيجية على النحو التالي : اذا دخلت فلسطين في نطاق النفوذ البريطاني واذا شجعت بريطانيا عملية استيطان اليهود هناك واصبحت دولة خاضعة لبريطانيا فسيصبح هناك ـ خلال عشرين عاما مليون يهودي ـ يقومون بخدمة المصالح الامبريالية)[1]

وعلى الرغم من هذا الارتباط الذي لم ينقطع ولا لحظة كان على مجتمع المستوطنين والغزاة ان ينوء بحمل مشاكله ، التي لا تبدأ بمترتبات الأفق العنصري للصهيونية كعقيدة ، ولا تنتهي بمشكلة البحث عن ملامح الهوية والجذور .

وفي هذا السياق نستطيع تلمس عموم هذه الاشكالات والعقبات المادية التي تقف بوجه (تكامل) حالة المجتمع الصهيوني في حال الانطلاق من البدهية التي هي بمثابة معيار عملي لحياة وموت هذا الذي يحدث داخل بنية مجتمعهم . والمسلمة هي : ان ما رافق عملية الغزو الصهيوني لفلسطين هو غزو وتشويه واعادة تشويه لكل ما يتعلق بذهن الفرد اليهودي بما يتعلق بالماضي ، وبالحاضر القائم (حاضر الشعب الذي سيقلع من ارضه). وكانت واحدة من نتائج هذا الأمساخ هو عقلية الفرد الصهيوني الحالي باعتباره (النموذج) وباعتبار الآخر اي كان هو الأدنى فـ (الصهيونية لم تكن قادرة على تبرير غزوها لفلسطين الا بالمبررات التي اعتمدها كل غزو آخر في التاريخ ، وهو التفوق البدني والحضاري والذهني والاخلاقي)[2]

مع ذلك لم يسلم الفرد الصهيوني وبالتالي المجتمع نفسه من مترتبات هذه النظرة النازية . وهذه المسألة هي الأهم في عموم الحوار والتي ترتد بدقة الى نحوه المتحاورين .

وعندما يحدد (بيرس) وهو اليهودي الاوربي (ان السياسة والنشاطات الثقافية يسيران في خطين مختلفين تماماً ومنفصلين) ينسى ان حوارهم في الاساس إنفتح في السياسة وأفرد للثقافة الحيز الأكبر وانتهى بالسياسة . وهذا ليس بالنسيان بل التجسيد الواعي لامكانية رد ما تمليه الثقافة على السياسة ككل ، فما اذا كان هناك واقعاً وأناساً متناسبين في حقيقة الانتماء للأرض وللمحيط الأشمل !

و (الانفصال) الذي يعتقده ويحاول تثبيته (بيرس) يحصل بالقدر الذي يعبر أحدهم عن أعقد لوثات الغيتو والتعصب . اي عندما تطرح حدود الانتماء والارث باعتبارهم غرباء ويمتلكون تواريخ انتماء غاية في التباين . وهذه المسألة هي ما يلح على جوانبها (بن سمحون) ـ اليهودي الشرقي ـ في رغبته لأن تكون الفرص متاحة لأن يجري التعبير عن ارث اليهود المغاربة بالرغم مما يحمله من الانطباع الواضح عن واقع حياة اليهودي المغربي بمحيطه الأول . فعندما يسأله (بيرس) (هل كان ابوك مرتحاً في المغرب ؟ وهل نمى حقاً ثقافة في المغرب بارتياح ؟ أم انه كان يهوديا مواطنا من الدرجة الثانية ؟ وهل كان العرب يعاملونه بمساواة ؟) يجيب (بن سمحون) عن ذلك بقوله : (الصورة المنطبقة في مخيلتي من المغرب هي صورة المضيفين الكرام واذا اردنا الحديث عن عرب فلا نستطيع ان ناتي على ذكرهم إلا ان ما ينمى بشكل فعال هو كل ما له علاقة بثقافة الاشكناز وتقاليدهم .. مع ذلك سرعان ما يؤخذ بالبذرة العنصرية التي ربيت بداخله فيقول :

(ماذا تعني بثقافة اسرائيلية واحدة ؟ الجميع يلعبون اليوم لعبة (الأثاري) . فهل هذه هي الثقافة الموحدة ؟ جميعنا نشاهد مسلسل (دالاس) فهل هذه هي الثقافة الموحدة ؟ بمثل هذه الثقافة لا نختلف عن مصر ولا عن الأردن حيث نريد ان نترفع عنها).

وفي هذه النقطة تتوفر للمحاورين فرصة الرأي الموحد ـ في النظرة العنصرية ـ هم كثلاثة . فـ (ليبد) (مقدم البرنامج وهو يهودي أوربي يجد في حديث (بن سمحون) بشأن اناشيد الكيبوتس (التي لا تجلب البهجة والسرور الى نفسي بالقدر الذي تجلبه لأولادي ولزوجتي ـ باعتبارها اوربية) يجد في هذه الاشارة ما يغيظه بشكل مركب لجهة كونه منتزعاً من ارثه كمستوطن ، واخرى بسبب اصرار (بن سمحون) على الانتماء لارثه فيجيب بقوله (أحاول عدم الاشتياق الى اللغة الهنغارية . واعتقد بانني اذا اشتقت اليها اكون في هذه الحال قد بدأت اغرق في حنين مزيف الى الماضي ، في حياة داخل شعب معاد ، يكره اليهود ، واليهود ؛ جميع اليهود اصابهم السوء وهم في داخله).

أما تعليق (بيرس) على ذلك (بالنسبة لي عن « منشورات الاسوار » في عكا ، صدر مؤخرا كتاب جديد للمفكر الفلسطيني الدكتور اميل توما ، بعنوان « الصهيونية المعاصرة » يشتمل على دراسات سبق ان كتبها المؤلف في سنوات السبعين ، دحض من خلالها المقولات الصهيونية الجوهرية ، وابرز الاستراتيجية الصهيونية التي املت نهجا تكتيكياً عينياً نفذته المنظمة الصهيونية ، كما حللت هذه الدراسات ازمة الصهيونية واظهرت مصادرها المحلية والعالمية . وقد جاء الكتاب في ثلاثمائة وتسع وعشرين صفحة من القطع المتوسط عبر سبعة فصول .

كما صدر لنفس المؤلف الدكتور اميل توما كتاب آخر بعنوان « طريق الجماهير العربية الكفاحي في اسرائيل » عن منشورات دار « أبو سلمى » في الناصرة ، اشتمل على ثمانية فصول ابرز خلالها الدكتور توما اهم قضايا الجماهير العربية في فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ ، وصور اصعب معاناتها بصورة عامة . وجاء الكتاب في ثلاثمائة وثلاث وعشرين صفحة من الحجم المتوسط .

سامية فارس و « حكاية عمار »

باكورة اعمال الكاتبة الفلسطينية سامية فارس ، صدرت حديثا في القدس ، تحت عنوان « حكاية عمار » متضمنة سبع عشرة حكاية فلسطينية للاطفال ، سبق ان كتبتها ونشرتها المؤلفة من خلال السنوات الثلاث الماضية ، وجاءت في مئة صفحة من القطع الصغير . وتمثل هذه المجموعة القصصية للاطفال اضافة جديدة للمكتبة العربية الفلسطينية ، بخاصة في وطننا المحتل ، حيث تتوجه الكاتبة سامية فارس في كتابها الى اهم قطاع من شعبنا الفلسطيني في مرحلة المواجهة والتصدي .

وقد صمم الغلاف واللوحات الداخلية للكتاب الفنان التشكيلي نبيل عناني .

مسرحية لأدمون شحادة

عن المكتبة الحديثة في الناصرة ، صدرت مؤخرا مسرحية جديدة للكاتب ادمون شحادة بعنوان « بيت في العاصفة »، وهي مسرحية اجتماعية تحاول الكشف عن بعض جوانب الواقع الاجتماعي الفلسطيني في المرحلة الراهنة وجاءت المسرحية في مئة واربع وسبعين صفحة من القطع المتوسط .

جديد اميل توما

عن الحقد المتوسط عبر سبعة فصول .

كما صدر لنفس المؤلف الدكتور اميل توما كتاب آخر بعنوان « طريق الجماهير العربية الكفاحي في اسرائيل » عن منشورات دار « أبو سلمى » في الناصرة ، اشتمل على ثمانية فصول ابرز خلالها الدكتور توما اهم قضايا الجماهير العربية في فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ ، وصور اصعب معاناتها بصورة عامة . وجاء الكتاب في ثلاثمائة وثلاث وعشرين صفحة من الحجم المتوسط .

عنصرية الجميع

لكن ذلك لا يمنع (بن سمحون) من ان يشارك زملاءه النظرة العنصرية عندما يجري الحديث بشأن إمكانية تنمية ثقافة واحدة ، وضرورة قيام ثقافة اسرائيلية واحدة ، وبالتالي معرفة اليهودي الشرقي الى اعارض تنمية الشعر الهنغاري أو الشعر المغربي عبر وسائل الاعلام .. مع هذا أطالب بضرورة تقديم الثقافة غير المغربية وغير الهنغارية التي استطيع المشاركة بها).

و (بيرس) في كل هذا يخلص عبر إجابة أخرى الى النقطة الأكثر ملموسية فيما يجري تطبيقه اليوم في المجتمع الصهيوني والتي تحمل معها مأزقها ومغالطاتها التي يفصح الحوار نفسه عنها . وعندما يجري التساؤل عن نمط الحياة المقترح للمجتمع الصهيوني كيما يستطيع التغلب على معضلاته يقول (ان نمط الحياة الخاص بنا جميعاً يجب ان يكون نمطاً حضاريا وليس نمطاً من الماضي) يسأله (المراس ـ ليبد) (حضاري يعني غربي) يجيب (بيرس) (الحضاري هو حقاً أكثر قرباً للغرب منه للشرق . وهذا من دون شك صحيح ، لكن ذلك لا يعني نمط حياة البلدة في اوربا الشرقية ، وبالتأكيد ليس نمط حياة الشرق الاوسط العربي).

رماد الأسئلة :

وهنا لا بأس من الملاحظة التالية : أن أوضح الاشارات التي استطاعت ـ عبر الحوار ـ ان تتلمس مفاصل عوز وعطل عموم المشروع السيسيولوجي الذي تحاوروا حوله الثلاثة هي اشارات (بن سمحون) في معرض اسئلته واجوبته . والسبب هو طبيعة (الأذى) و (الشعور بالدونية) الذي يتنفسه اليهود الشرقيون على امتداد الفترة منذ قيام الكيان الصهيوني ، وبالتالي فهو يقع في (الخانة) الأدنى بالتراتب المجتمعي الصهيوني ، مضافا الى كونه جزءاً من تشكيلة الأنتلجنسيا ، والأخيرة لها قدرة على التقاط الاخطر فيما يفعل مجتمعياً ، وفي سياق إجابة من اجاباته التي حملت من (الاسئلة) ما يجعلها حقيقة السوط الذي (يجلد ـ يؤ رخ) ليوميات تجربة داخل تجربة . يقول بن سمحون :

(أتينا من أماكن عدة . إنما يجب ان نحدد من أين أتينا . فكيف نعتقد بأن في الامكان البدء من العدم ؟ وبأي حق وأي تبرير لنا ولثقافتنا ، لنبدأ من صحراء مقفرة ؟ نحن ننتمي لشيء ما ، ويجب التأمل مع شيء ما . قل من اين نريد ان نبدأ . لا اعتقد ان في الامكان البدء من نقطة الصفر اي منذ ٣٥ سنة وهي عمر الدولة).

ان العبارة السابقة كما يمكن ان تلاحظ لاتحتاج للكثير من المناقشة . فهي أفق لرماد اسئلة لا غير .. والأجوبة المقترحة عليها هناك ما هو فائض بما يناقضها . وهذه ليست بالمرة الأولى التي يصل لها الفرد الصهيوني الى هذا الانقذاف في الفراغ فقد سبقت الكثير من النصوص الروائية والشعرية (مما انجز في الأدب الصهيوني ككل) الى هذه النتائج ، وربما كانت رواية (الغبار) ليائيل دايان خير مثال على ذلك ..

ولبعض من هذا التفكك واللاتجانس حتى ع (الشيء ما) الذي يطمح بن سمحون ان يتماثل معه .. يقترح هو نفسه وبعد تقريره لواقعه كغزاة (يعيشون بحد السيف) يضيف قائلاً (لا أحد يستطيع أن يتجاهل هذا الأمر ، لهذا يجب تشجيع الانجاب).

•••

وازاء هذا الموضوع الذي عرضنا له من خلال كلام الثلاثة باعتبارهم يبحثون عن حلول محددة لما طرحوا .. ما الذي بامكاننا أن نثبته ؟

- ان صورة (المجتمع الاسرائيلي) التي تحاول الصهيونية واعلامها ان تحدد ملامحه .. هي صورة مركبة ومشوشة .
- إن الثقافة المشتركة التي يطمحون لتحقيقها غير قابلة لأن تكون ثقافة الجميع ، باعتبارهم جاءوا من اماكن متباينة .
- التوحد والتشابه الممكن هو في حالة الحرب فقط ..
- العنصرية والشعور بالعداء والكراهية إزاء العرب وإزاء المجتمعات الأخرى هي قانون يحكم عقلية الفرد الصهيوني .
- الشعور بالقلق ، وعدم الاستقرار سيبقيان هما الهاجس للفرد الصهيوني لأن طارىء ، ومغتصب للأرض .

محيي الاشيقر

(١) الايديولوجية الصهيونية / الدكتور عبد الوهاب المسيري ـ عالم المعرفة ص ١٤١

(٢) غسان كنفاني / الأدب الصهيوني / المجلد الرابع الدراسات الأدبية ص ٥٠٦